علي ومسيرة الحضارة الإسلامية /١

التحرير

ملخّص

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) واصل مسيرة الإحياء بعد رسول الله(ص)، وبذلك صان المسيرة الحضارية الإسلامية من الجمود والركود، نهج البلاغة وثيقة هامة في حقل الإحياء والاستنهاض الحضاري، سواء في رسائله أو خطبه أو كلماته القصار. وهذه وقفات عند كلماته القصار.

مقدمة:

الدين الإلهي مشروع لإحياء البشرية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ومظهر هذا الإحياء الحركة التكاملية.. حركة في كل ما أودعه الله في الانسان من طاقات مادّية ومعنويّة لاستثمارها فيما «ينفع الناس» أي لصالح البشرية.

هذا المشروع يقوم على أساس منهج ثقافي (يحرّك) و(يوجّه).

الحركة تتطلّب تحرير الانسان من الانشداد بالأهداف الصغيرة التي تفرزها نزعة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(الطين) في الإنسان، وهي التي يسميها القرآن (الهوى)، وتفعيل (نفحة روح رب العالمين) فيه، فيندفع بموجبها نحو المثل الأعلى المطلق، وهو الله سبحانه.

جميع أئمة الإسلام ودعاته «إحيائيون» استهدفوا تفعيل عناصر الحركة في الثقافة الإسلامية لتوجيه الأمة نحو الإنتاج الحضاري.

نقف عند محطات من التوجيهات الحضارية للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) باعتباره رائد هذه الحركة بعد رسول الله(ص). ونبدأ بباب المختار من حكم أمير المؤمنين في نهج البلاغة/ شرح محمد عبده:

قَالَ (عليه السلام) : **الْبُخْلُ عَارٌ وَ الْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ وَ الْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حُجَّتِه وَ الْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِه** (الحكمة ٣)

البخلُ مظهر من مظاهر الذاتية والأنانية، وهو إذن من معوّقات الحركة الحضاريّة، وهو نقص في الإنسان المكلف بالتحرر من سجن الذات والانطلاق إلى ربّ العالمين.

والجبنُ منقصة، إنه أيضا من مظاهر الذاتية، والجبان هو الذي يخاف من كل حركة تكامليّة، ويرى فيها تعارضًا مع مصالحه الذاتية، ومن هنا تُشلّ مساهمته في البناء الحضاري.

والفقر من عوامل الإذلال، فهو مضادٌّ لشخصية الإنسان وقواه الإنسانية.. مضادٌ حتى لفطنته فلا يستطيع أن يقدّم الحجة والدليل على دعواه، وبذلك يتخلّف عن مكانته الاجتماعية وعن دوره في الحركة الإنسانية.

والمقلّ (الفقير) لا يشعر بالانتماء إلى مجتمعه، بل يشعر بالسَخط عليه، إذ يفتقد هذا المجتمع إلى أهم أصوله وهو التكافل الاجتماعي، ومن هنا يشعر المقلّ بالغربة في هذا المجتمع ولا يندفع فيه إلى أية مساهمة اجتماعية تكاملية.

قَالَ (عليه السلام) : **الْعَجْزُ آفَةٌ وَ الصَّبْرُ شَجَاعَةٌ وَ الزُّهْدُ ثَرْوَةٌ وَ الْوَرَعُ جُنَّةٌ وَ نِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضَى** (الحكمة ٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العجز آفة؛ بل هو أكبر آفة لحركة الانسان نحو مثله الأعلى، والعجز حالة نفسية يشعر معها الفرد بعدم القدرة والضعف، وهو آفة لأنه يأتي على كل طاقات الإنسان ويشلّها.

والصبر شجاعة، وهو الصبر على تحمّل أعباء الحركة نحو الله. التخاذل والتراجع أمام هذه الأعباء جُبن ما بعده جُبن، ومواصلة المسير نحو الكامل المطلق بصبر وثبات يحتاج إلى شجاعة وشهامة وقوّة إرادة.

والزهد ثروة، وليس الزهدُ الابتعاد عن ممارسة الحياة، بل هو ممارسة لكل شؤون الحياة مع التمكّن منها، وامتطاء أعباء الحياة مع الأخذ بزمامها، وفي هذه الحالة يشعر الإنسان بالغنى دائمًا وفي كل حال، لأن الأطماع لا تستولي عليه، وفقدان الفُرص المادية لا يحزنه. فهو ثروة لا تنضب.

والورعُ جُنّة، إنه جُنَّة أي وقاية للإنسان حين يتعرّض لكل ما يصدّ حركته الحضارية. الورع وهكذا التقوى سلاح مهم لمواجهة أخطار التحدي الحضاري.

وقال (عليه السلام): **نِعم القرين الرضا، والعِلمُ وراثة كريمة، والآداب حُلَلٌ مجدَّدة، والفكر مرآة صافية (الحكمة ٤).**

الرضا ليس قبول الأمر الواقع، فقد يكون هذا الواقع فاسدًا يجب رفضه وعدم الرضا عنه. الرضا هو الذي ذكره القرآن عن «النفس المطمئنة».. الرضا هو حالة الانسجام النفسي مع خالق الكون ومخلوقاته، والتعامل مع الحياة بحالة من الاستبشار وعدم الحزن وعدم الخوف، وهي حالة تجعل الانسان في حالة نشاط وحركة وبُعد عن اليأس والقنوط والتوقّف.

والعِلم أفضل وأكرم ما يتركه الإنسان لجيله والأجيال القادمة، لأن عطاءه متدفّق متواصل كريم، ويساهمُ في إثراء مسيرة الانسان نحو الله.

والآداب حُلّة لا تَبلى، فهي متجدّدةٌ دائمًا، لأنها تتكامل باستمرار، ولا تبقى عند

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حدّ، فهي متجدّدة، وتساهم في تطوير الحركة التكاملية دونما توقّف.

والفكر أفضل مصادر المعرفة واستثارة التفكر تأكيد قرآني: «لعلهم يتفكرون» «لقوم يتفكرون» ، وهو وراء إغناء مسيرة الحضارة وإثرائها وتعميقها.

وقال (عليه السلام): **من أبطأ به عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ به نَسَبُه** (الحكمة ٢٢).

هذا مفهوم حضاري يدعو إلى العمل، وعدم الاعتماد على مفاخر النسب. إنّه يبيّن معيار مكانة الإنسان وقيمته، فلا فائدة في نسب كريم إذا لم يقترن بالعمل. وكم من المتقاعسين المتخلّفين في حاضرنا الإسلامي من يتغنّى بالآباء والأجداد!! فينتفخون غرورًا ظانين أنهم في مقدمة أمم الأرض، بينما هم في مؤخرتها بسبب عدم اجتهادهم في السير على مسيرة الحضارة.

وقال (عليه السلام): **أفضل الزهدِ إخفاءُ الزهد** (الحكمة ٢٧)

كل القيم الإنسانية الكبرى معرّضة لخطر الرياء.. لخطر أن تتحول إلى دكّان للمتاجرة،، والى تظاهر.. عندئذ تفقد دورها في تحرير الإنسان من ذاتيته، بل تتجه نحو تكريس الذات. ولذلك من الأفضل إخفاء الزهد كي لا يشوبه رياء، ولكي يؤدي دوره في عملية تحرير الإنسان ودفعه على مسيرته الحضارية.

وقال (عليه السلام): **قُرنت الهيبةُ بالخيبة، والحياءُ بالحرمان، والفرصةُ تمرُّ مَرَّ السحاب فانتهزوا فُرَص الخير** (الحكمة ٢٠).

نصّ هام في الحثّ على استثمار عُنصر الزمان، باعتباره من عناصر الانطلاق الحضاري. فإذا تهيّب الإنسان من الدخول في تجارب الحياة خاب سعيه، ولا يصل إلى نتيجة.

ومن حجبه الحياء عن اقتحام ميادين الخير حُرم من الخير، والحياء هنا ليس ذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحياء الممدوح الذي يقابل الصلافة والوقاحة، بل هو ـ كما يقتضي السياق ـ التردّد وعدم اتخاذ القرار الحازم، وعدم التحلّي بالأريحية الاجتماعية.

والفرصة تمرّ مرّ السحاب، وكلّ لحظة من لحظات الزمان فرصة للتكامل والسير على طريق الحياة الطيبة. والإنسان إن لم ينتهز فرص الخير، ضاع عمره، وفقد دوره على ساحة الحركة المتكاملة.

وقال (عليه السلام): **أَقِيلُوا ذَوِي الْمُرُوءَاتِ عَثَرَاتِهِمْ فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلاّ وَ يَدُ اللَّهِ بِيَدِهِ يَرْفَعُهُ** (الحكمة ١٩).

هذا النص له دلالة هامّة على منهج التعامل مع الآخر في المنظومة الإسلامية، إنه منهج يقوم على حفظ «كرامة» الإنسان و«عزّته» و«شخصيته» كي يواصل عطاءه على الساحة الإنسانية. فإذا عثر إنسان فلا تواجهوه بما يعمّق عثرته ويبعده عن حركته الرائدة، بل تخلّقوا بأخلاق الله الذي يأخذ بيد العاثر ويقيله (يرفعه) من سقطته.

وقال (عليه السلام): **لَنَا حَقٌّ فَإِنْ أُعْطِينَاهُ وَ إِلاّ رَكِبْنَا أَعْجَازَ الإِبِلِ وَ إِنْ طَالَ السُّرَى** (الحكمة ٢١).

إنه استنهاض لطلب الحقّ.. وطلب الحقّ وراء كل حركة تكاملية في تاريخ البشريّة. والسكوت عن طلب الحقّ وراء كل ركود وذلّ وفتور في المجتمعات. ولابدّ من طلب الحقّ حتى ولو تطلّب الأمر تحمّل المشاكل والصعاب.. ولو تطلّب ركوب أعجاز الإبل وهو ركوبٌ شاقٌّ على العكس من ركوب ظهورها. بل ولو طال السُّرى (السفر في الليل).

وقال (عليه السلام): **كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ لا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ وَ لا ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ** (الحكمة/١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفتنة هي حالة الانحراف التي تصيبُ المجتمع الإسلامي، والانحراف يعني ظهور العوائق التي تصدّ المجتمع عن حركته التكامليّة، والنصّ يشير إلى نوع من الانحراف يتمثل في سيطرة الظالمين والمستبدين على المجتمع، والمستبدون يعمدون إلى استغلال الأفراد لصالح فرض استبدادهم، والدعوة في النصّ إلى أن يكون الإنسان أمام محاولات الاستغلال هذه كابن اللبون (ابن الناقة) لا يمكن استغلاله في الركوب وفي الحلب.

إنها دعوة إلى اتخاذ الموقف المناسب من حالة السيطرة الفرعونية المضادّة للمسيرة الحضارية في المجتمع.

وقال (عليه السلام): **أَزْرَى بِنَفْسِه مَنِ اسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ وَ رَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عَنْ ضُرِّهِ وَ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَنْ أَمَّرَ عَلَيْهَا لِسَانَهُ** (الحكمة ٢).

دعوة إلى أن يحفظ الانسان عزّته وكرامته، واستشعار العزّة من أهم المحركات الثقافية في المسيرة الحضاريّة. والطمع يهين شخصيّة الانسان ويحطّ منها، والطمع هو الاستزادة من فضول العيش، وعدم الاكتفاء بضرورات الحياة، وقديمًا قيل:

لقد دقّت ورقّت واسترقّت فضول العيش أعناق الرجال

كذلك الذلّ كلّ الذلّ في الكشف عن الضرّ. وكم من الناس يواجهون الصعاب بصدر رحب، لا يشكون و لا يتأفّفون ولا يضجرون، وثمّة أناس ما إن يصيبهم سوء حتى هاجوا وماجوا وشكوا إلى هذا وذاك، وقد يملّ الناس من كثرة شكواهم، ويؤدي أمرهم إلى الحطّ من شأنهم، وهذا مما يضرّ بمكانة الإنسان ودوره في الحركة الحضارية.

واللسان، حين يكون أميرًا على الإنسان، يدفع بصاحبه إلى الهذر وضياع العقل والابتعاد عن الحكمة والتدبّر. والإنسان الحضاري ينبغي أن يحكّم عقله على لسانه فينطق بالصواب وبما ينفع الناس.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com